مؤهلات الحب !

للأستاذ محمود شلبي

كان صلى الله عليه وسلم يحب الله ، ويحبه الله ، فكان حريصا على كل شيء يؤهله لذلك الحب الكريم .

ولئن كان من قوله تبارك وتعالى : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » ... فإنه صلى الله عليه وسلم كان مستجيبا بالفطرة الطيبة لذلك النداء . . . فكان صلى الله عليه وسلم دائم التوبة ، حتى يروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يستغفر الله تعالى في اليوم أكثر من سبعين مرة ... وكان كذلك دائم التطهير ... كان يتوضأ دائما ، كل يوم مرات ومرات :

ولم يكن حب الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم شيئا من الفضل الإلهي وكفى . كلا ، ولكن عن جدارة واستحقاق .

كل شيء يحبه الله تعالى ، كان صلى الله عليه وسلم يحرص عليه ، ويأتيه بالفطرة ، ثم بالتشريع .

وهنا ينفتح لنا باب عظيم من أبواب البحث والاستقصاء ...

إذا كان هذا هو أسلوب النبي صلى الله عليه وسلم ليحظى بحب الله تبارك وتعالى فما هو أسلوب الفرد العادي ليحظى بذلك الحب ؟ .

الأسلوب أن نفعل كما كان صلى الله عليه وسلم يفعل ، وهو ما يسمى بالاتباع ، وهو ما ينادي به الله تعالى عباده أجمعين « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله .

نعم ... إن كنتم تحبون الله حقا ، وتحرصون على حب الله ، فإن الطريق هو اتباعي ، لأني أعلمكم بالله ، وأعلمكم بالكيفية التي يتوصل بها إلى ذلك الحب ، فلا سبيل لكم إلا اتباعي ، وإلا تقليدي ... وفي نهاية الطريق تجدون الثمرة الطيبة ، وهي حب الله لكم .

والذين يزعمون أنه يمكن للإنسان أن يحب الله على غير أسلوب النبي صلى الله عليه وسلم ، إنما زعموا باطلا ، وادعوا منكراً ... ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما يأتى ما يؤهله للحب بفطرته السليمة ، بقلبه السليم ... فمن الحتم أن يكون كل إنسان سليم القلب على نفس الفطرة النبوية ... لأن الله لا يغير سنته التى فطر الناس عليها .

فإذا كان كل إنسان سليم القلب موحداً غير مشرك لزم أن يكون الناس جميعا إذا أرادوا أن يزعموا أنهم سليمو القلب أن يكونوا موحدين غير مشركين .

فإذا زعم زاعم أنه يمكن أن يكون سليم القلب وهو ليس موحداً غير مشرك ، قلنا له كذبت ... فإن سلامة القلب تثمر حتما التوحيد .

كذلك الذين يزعمون أنهم يحبون الله وهم على غير أسلوب محمد صلى الله عليه وسلم هؤلاء نقول لهم كذبتم . لأن محمدا صلى الله عليه وسلم يأتى ما يأتى كل إنسان يحب الله ، فما خالفه وجاء بغير ماجاء به ، قلنا له لست محبا لله ، وإنما أنت مخادع لله ولنفسك .

وتلك القاعدة هى الأساس الأعظم فى ناموس الحب الإلهى ...

ولقد كان حتما ولزاما أن يمضى كل من أراد الوصول إلى حب الله وراء النبي صلى الله عليه وسلم .

والناس فى ذلك لا خيرة لهم ، وإنما هى نواميس الله التى لا تتغير .

فكما أنه لا بد لكل إنسان ليحقق حياته من الماء والغذاء ، فإنه لا بد لكل إنسان ليحقق حبه لله من اتباع رسول الله صل الله عليه وسلم .

ولو أمكن للإنسان أن يحصل على الحياة بلا ماء ولا غذاء ، لأمكن للإنسان أن يصل إلى حب الله بلا اتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإذا استحالت الحياة بغير ماء وغذاء ، فإن حب الله يستحيل بغير اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم .

إن الذى وضع هذا الناموس ، هو الذى وضع ذلك الناموس ... ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وعلى هذا ... ما من شيء يؤدى إلى حب الله إلا كان من صفات النبي صلى الله عليه وسلم ، وما من شيء يؤدى إلى بغض الله إلا كان النبي صلى الله عليه وسلم أبعد الناس عنه .

فما أسلوب هذا الاتباع ، وكيف يكون ؟ .

لقد حدده صلى الله عليه وسلم تحديداً ، وقننه تقنينا ... حيث قال : « إذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ... أو كما قال :

ليس هناك من تحديد أدق ولا أرق ولا أشف من هذا التحديد ! .

إذا كان الأمر نهيا وجب الانتهاء عنه فوراً ، انتهاء تاما .. لأن المعصية لا ينبغى أن تكون من المؤمن .

وإذا كان الأمر طاعة فأتوا منه ما استطعتم ، وهذا هو التوجيه المعقول .

لأنه لا يستطاع لانسان أن يفعل كما كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم تماما بتمام ... وإلا لصح أن يكون مثله ... وهذا مستحيل .

وإنما الذى يستطيعه كل إنسان أن يحاول أن يقترب مما كان صلى الله عليه وسلم يفعله ، على تفاوت فى ذلك بين الخلائق ، وكل ميسر لما خلق له .

ولقد جعل الله حداً أدنى للخلائق كلها لا ينبغى أن ينزلوا عنه ، أو يتدلوا دونه .. وهو ما يسمى بالفرائض .

فهناك فروض خمسة ، هى الصلوات الخمس . لا يحل لأحد أن يتهاون فى أدائها ، لأنها الحد الأدنى للإنسان .

أما التطوع فى الصلوات فلا آخر لها ولا نهاية ، فلك أن تصلى تطوعا ما شئت .. فلو بدا لك أن تقوم الليل كله فقم ... أنت وشأنك . . . لأن باب الكمال والترقى مفتوح . . . وهو باب لو عرجت فيه الخلائق كلها ما قطعت منه مقدار ذرة من صحراء واسعة .

وهنا يزهو نور التوجيه النبوى ، ويبدو لألاؤه أسنى من الشمس فى عليائها .

فأسلوب الاتباع هو هذا ... إذا كان نهيا وجب الانتهاء فوراً ، وإذا كان أمراً من طاعته كان على الانسان أن يجاوبها ما استطاع ، وذلك فيما هو بعد الفروض ، التى هى الحد الأدنى للطاعات .

لقد كانت مؤهلات الحب التى يملكها رسول الله صلى الله عليه وسلم عظيمة ، ولا تحصى .

كان سليم القلب ... وسلامة القلب هى مفتاح العروج إلى الله .. ولو أنك جئت

الله بملء الأرض طاعات ، وقلبك غير سليم ما فتحت لك أبوابه سبحانه وتعالى أبدا ... لأن سلامة القلب هى مفتاح الفتوح وبداية الرضى .

وكان على خلق عظيم ... والأخلاق هى أول شىء يقرب الإنسان من الله . . . ومن لا خلق له ، لا مكان له عند الله . . فكيف به إذا كان عظيما فى أخلاقه ، أى حائزاً لأعظم قدر من الأخلاق ، وأعلى درجة من الصفات ؟ .

وكان توابا ... دائم التوبة ... وذلك من أعلى المؤهلات المؤدية إلى قرب الله .. لأن التوبة اعتراف بالذنب ، وإحساس بالتقصير ، ورغبة فى التقريب ، ومن كان تواباً كان منكسراً لله ، ومن كان منكسرا أحبه الله .

وكان آكلا للطيبات ، لا يأكل من خبيث أبدا ... وأكل الحلال هو أول درجة فى سلم العروج إلى الله ... والذين يأكلون من حرام ، ويزعمون أنهم مقربون من الله هم قوم كذابون ، لأن من أكل لحم نبت من حرام فالنار أولى به .

وكان فعالا للخيرات ، حياته كلها خير ، وذلك من أعظم ما يؤهل لحب الله تبارك وتعالى .

وعموماً كان صلى الله عليه وسلم حائزا لأعلى الدرجات وأعظم المؤهلات ، التى تجعله أحب الخلائق إلى الله .

وبذلك استحق أن يكون حبيباً للرحمن .

وعلينا إذا أردنا أن نكون على شىء من حب الله ، ولو ظلال من أنوار ذلك الحب ... علينا إذا أردنا أن نستظل بنور الله أن نحاول ما استطعنا ما كان يفعله النبى صلى الله علية وسلم .

علينا أن نعيش بقلوب سليمة ، وأن نخالق الناس بخلق حسن ، وأن ندمن التوبة ، وأن نأكل من الطيبات ، وأن نسارع إلى الخيرات وأن نتتبع خطواته فى كل شىء .

ويوم نفعل ذلك ، حق لنا أن نزعم أن الله يحبنا ، ويوم لا نفعل .. فلا يحل لنا أن نزعم من ذلك شيئا ؟